

# رثاء أبي العلاء لأبيه (الموت والزمان)

## (أدب عربي)

د/ عبد الله رمضان  
قسم الأدب والنقد  
كلية اللغات - جامعة المدينة العالمية  
شاه علم - ماليزيا  
arharidy@gmail.com

خلاصة— هذا الموضوع يتناول مقاطع من رثاء أبي العلاء المعري لوالده، وحديثه هنا عن الموت والزمان.

الكلمات المفتاحية: الموت، الزمان، أبو العلاء المعري، المعرفة، الرثاء، الشام، الأبياء.

### I. المقدمة

في هذه الأبيات يصب أبو العلاء غضبه على الدنيا متهما إياها بعدم الوفاء والخيانة.

### II. موضوع المقالة

يصب أبو العلاء جام غضبه على الدنيا متهما إياها بالخيانة وعدم الوفاء مستطردا في وصفها وتعلق الإنسان بها وتكالبه عليها، ويأتي كل هذا في إطار تأملي مطعم بالمعاني الفلسفية.

على أم دفسر غضبة الله إنتها  
لأجدر أنتسى أن تحفون وأن تخفي  
مخبا لة قامت لة الشمن بالخسن  
رأها سليل الطين والشيب شامان  
لها بالترنما والسماكين والوزن

ويستعرض نماذج متعددة كرهت الموت أو حاولت الفرار منه، وكأنه يقول لنا إن الحياة عزيزة على كل حي وفقدتها ليس بالشيء الهين؛ لذلك فالحزن والأسى لفقدتها لا بد أن يكونا كبيرين خصوصا إذا كان الفقد في مثل مكانة والده. ونلاحظ أن أبا العلاء نوع في تلك النماذج ما بين الحيوان والإنسان، وذكر نماذج من الحيوان الضعيف - تمثله القطا والفروسي - وتمثله حمر الوحش - وفيما يتعلق بالإنسان فقد ذكر أصحاب الكهف، ونوحا، وموسى، وأدم. وكلها نماذج لا تبيء لاتباء وصالحين، ومنهم من وعد جنة عدن، وبرغم هذا لم تستعذب أرواحهم الموت؛ فالموت - فيما يرى - "مأساة البشر ومأساة غيره من المخلوقات لقد دفعوا إلى الحياة مجبرين، وهم ينزعون عنها مكرهن، على ما ركب فيهم ليويان البشر ما أفند من جزع من جرع" (١). فموت أبي العلاء الوقوف عكسها (٢).  
فما زغب في الموت كدر  
إلى الورد جسم ثم يشرب  
مسيرها من

يصادف نقرًا كل يوم وثيلة  
وتلقين شرًا من مخالبي  
الخجن

(١) الحياة الإنسانية عند أبي العلاء - د. بنت الشاطي (مطبعة المعارف ومكنتها بمصر - القاهرة - ١٩٤٤م) ص ١٧٦.

ولا قفقات الليل باتت كأنها  
ضربين مليعاً بالسنايك أربعا  
وخوف الردى أوى إلى الكهف أهلة  
وما استعبتة روح موسى وأدم  
من الأين والإدلاج بعض الفنا اللدن  
إلى الماء لا يقدرن منه على مغن  
وكلف نوحا وابنة عمل السفن  
وقد وعدا من بعده جنتي عدن

ويخاطب أباه ناعنا إياه بـ "مولي القوافي" وهو ليس سيديا لها وحسب، بل من سهولة انقيادها له يرى الفصحاء العرب أشبه بالعجم غير المفصحين (٣) "ويبدو أن والد المعري كان معلمه الأول، فعنه تلقى دروسه الأولى وعلى يديه تلقى ميراثه الشعري" (٤). ويدعم ذلك ما أورده ابن العديم في تاريخ حلب عن أبي العلاء المعري أنه "قرأ النحو واللغة على أبيه أبي محمد عبد الله بمعرفة النعمان، ومحمد بن عبد الله بن سعد النحوي بحلب، وحدث عن أبيه أبي محمد عبد الله بن سليمان بن محمد وجده سليمان بن محمد..". وكذلك "سمع الجماهرة من أبيه أبي محمد عبد الله، وسمعا أبوه من أبي عبد الله الحسين بن خالويه ورواها أبو عبد الله عن ابن دريد الأزدي" (٥). فلم تكن علاقة أبي العلاء بوالده إذن علاقة أب بابن وحسب، وإنما علاقة أب بابن وأستاذ بتلميذ، فحق له إذن أن يرى أستاذه/والده مولى للقوافي:  
أمولى القوافي كم أراك  
للك الفصحاء الغرب كالعجم  
انقيادها للكن

ثم يهنئه بمنزله الجديد حيث الراحة والطمأنينة، ومن ثم السعادة واليمن. ولا ندري إذا كانت هذه السعادة ستتحقق لأن والد الشاعر قد أنعم الله عليه بالجنة، أم لأنه استراح من عناء الناس في الحياة؟  
هنيئا لك البيت الجديد مؤسدا  
يملك فيه بالسعادة واليمن

(٢) أورد ياقوت الحموي لوالد أبي العلاء شعرا في رثاء والده قال فيه:

(معجم الأدباء - ياقوت الحموي- دار الكتب العلمية - بيروت سنة ١٩٩٣م) ص ٣٩٨.  
(٣) المعري في فكره وسخريته - د. عدنان عبيد العلي (دار أسامة - عمان - الأردن - سنة ١٩٩٩) ص ٤١.  
(٤) بغية الطلب في تاريخ حلب - ابن العديم - تحقيق: د. سهيل ذكار (دار الفكر - بيروت سنة ١٩٨٨). ج ٢ ص ٨٦٣.  
(٥) السابق ص ٨٧٥.

لكن بعد أن رحل الوالد إلى ديار أخرى وجيران آخرين، كيف للشاعر أن يظمن عليه؟! وكيف له بمتابعة أخباره؟ بل كيف له أن يدرك حقيقة مصيره الذي آل إليه؟! ربما لا يهتم شعراء بمثل تلك الأسئلة، لكن أبا العلاء يستوقف الأحداث، وربما لا يهتم شاعرًا بمثل تلك الأسئلة، لكن أبا العلاء يستوقف الأحداث يسائلها محاولاً استكشاف كنهها، ويجد بغيته في "جهينة" التي عندها الخبر اليقين، ألم تقل العرب: "وعند جهينة الخبر اليقين"؟

ولن تخبريني يا جهين سوى الظنّ

طلبت يقينا من جهنة عنهم

فإنّ تفهيدني لا أزال مسائلاً

فإنّ تفهيدني لا أزال مسائلاً

على النقص فالويل الطويل من الغين

وإن لم يكن للفضل ثمّ مزية

لكن جهينة لن تأتيه بخبر يقين، لن تأتيه سوى بالظن، ولست أرى ما ذهبت إليه الدكتورة بنت الشاطي عندما فسرت "جهينة" في بيت أبي العلاء بأنها "الميت" وذلك في معرض حديثها عن حيرة أبي العلاء حيث تقول: "وجهينة هنا هو الميت: هو المخبر الصادق الذي شاهد وعانى وجرب. هو الذي سار في الطريق وعرف مراحلها، وولى الموت وشرب من كأسه هو الذي نودي إلى العالم الثاني، وكشفت له الحجب، وأزاحت أمامه الأستار"<sup>(٦)</sup>.

ولو كان تفسير جهينة على أنه الميت كما قالت لكان خبره الذي سوف يأتي به يقينا حيث إنه "شاهد وعانى وجرب" كما فسرت الدكتورة بنت الشاطي نفسها، إن يقين جهينة - كما يقول الدكتور عبد القادر زيدان - "ضرب من ضروب الوهم الذي تخدع به النفس، وكأن أبا العلاء يشكك في اليقين كفكرة. إن اليقين الحقيقي لديه هو الموت، وما عدا ذلك يتأبى على جهينة ويقينها المزعوم"<sup>(٧)</sup>.

(٦) الحياة الإنسانية عند أبي العلاء - ص ١٩٩.

(٧) قضايا العصر في أدب أبي العلاء المعري - ص ١١٣.